من تريم إلى العالم:
حرفةٌ تتجدد، وإيقاعٌ يستمر



unesco
منظمة الأمم المتحدة
للتربية والعلم والثقافة

بتمويل من
الإتحاد الأوروبي

smeps
وكالة تنمية المنشآت
الصغيرة و الأصغر
Small&MicroEnterprise
PromotionService



في مدينة تريم التاريخية بحضرموت نشأ صابر بكر على إيقاعات الهواجر والمراويس والمرافع. فمنذ طفولته كان يراقب جده وهو يشكّل الخشب بيديه ويحوّله إلى آلات إيقاعية ترافق الفنون والمناسبات الشعبية، ويتعلم منه تفاصيل حرفة توارثتها الأجيال وظلت جزءًا حيًا من الذاكرة الثقافية للمدينة.

والهواجر طبول كبيرة تُصنع من الخشب وتُغطى بالجلد، وتمنح الإيقاع أساسه العميق والقوي. أما المراويس فهي أصغر حجمًا، وتتميز بإيقاعاتها السريعة التي تضيف الحيوية إلى الأداء، بينما تأتي المرافع بحجم متوسط وتُستخدم في عدد من الفنون والمناسبات التراثية.

لكن قيمة هذه الآلات لا تقتصر على أصواتها؛ فهي تختزن معرفة متوارثة باختيار الخشب وتشكيله وتجهيزه، وبالتعامل مع الجلد وضبط تفاصيل الصناعة بما يحافظ على جودة الصوت وأصالة الشكل.

ومع مرور السنوات تحولت هذه الحرفة بالنسبة إلى صابر من مهارة تعلمها من جده إلى مشروع يسعى من خلاله إلى كسب رزقه والحفاظ على هذا الإرث وتطويره. ويستعيد تلك البداية قائلًا: «نشأتُ في مدينة تريم التاريخية وأنا أراقب جدي يتفنّن في تشكيل الهواجر والمراويس بيده؛ ومنذ ذلك الحين تحوّل شغفي بهذه الحرفة التراثية إلى رسالة وهدف لحياتي».

لكن تحويل هذه المهارة إلى مصدر رزق مستقر لم يكن سهلًا. فقد كان صابر يعمل من غرفة صغيرة في منزله، لا تتسع لأدوات التصنيع أو المواد الخام، فيما كانت معظم مراحل العمل تُنجز يدويًا، بما يتطلبه ذلك من وقت وجهد. وكانت انقطاعات الكهرباء تعطل المعدات المتاحة، بينما كانت طلبات العملاء تتجاوز قدرة الورشة على الإنتاج، وظل التسويق يعتمد بصورة أساسية على العملاء السابقين والتوصيات الشخصية. وكانت المفارقة أن الطلب على منتجاته كان موجودًا بالفعل ويتجاوز قدرة الورشة على تلبيته، ما جعل محدودية الأدوات والمساحة والطاقة عائقًا أمام الاستفادة الكاملة من سوق قائم في اليمن وخارجه.



ورغم هذه التحديات لم يفكر صابر في التخلي عن الحرفة أو تغيير طابعها؛ بل كان يبحث عن وسائل تساعده على تطويرها وتمنحها فرصة أفضل للاستمرار. يقول: "كان حلمي دومًا هو تطوير هذه الصناعة الأصيلة والارتقاء بها دون أن تفقد روحها الحضرمية".



جاءت المنحة لتساعده على الانتقال بهذه الفكرة إلى مرحلة جديدة. انتقل من غرفة العمل المنزلية إلى مقر مستقل يضم معملًا للتصنيع وغرفة للعرض والتخزين، فأصبح لديه مجال أوسع لتنظيم المواد الخام ومراحل الإنتاج. وفي المعمل توفرت معدات لقطع الخشب وتشكيله وتشطيبه، من بينها مخرطة خشب ومنشار سلسلة، إلى جانب ضاغط هواء وتجهيزات إدارية ومعدات للسلامة المهنية. كما زُوّدت المنشأة بمنظومة للطاقة الشمسية تضم بطارية ليثيوم، وستة ألواح شمسية، وعاكسًا هجينًا بقدرة ٦ كيلو واط مع ملحقاته، لتصبح الورشة أقل تأثرًا بانقطاع الكهرباء وأكثر قدرةً على مواصلة العمل.



بالنسبة إلى صابر ظهر الفرق في تفاصيل العمل اليومية. ويصف ذلك قائلًا: «اليوم وبفضل الأصول والتجهيزات الموفرة عبر المنحة، من منظومة الطاقة الشمسية والمعدات الحديثة إلى الانتقال لمقر أوسع وأكثر ملاءمة، أصبحت ورشتنا تعمل بكفاءة وانسيابية عالية دون توقف». وخلال شهر واحد فقط ظهر أثر التطوير في الإنتاج؛ إذ انخفض زمن تصنيع القطعة الواحدة بنسبة ٥٠٪، وارتفعت الطاقة الإنتاجية بنسبة ٣٠٪. وجاء ذلك نتيجة تكامل المعدات الجديدة والمساحة المناسبة واستقرار مصدر الطاقة وتنظيم مراحل العمل داخل الورشة.



ومع تحسن القدرة على الإنتاج بدأ صابر في توسيع ما يقدمه للسوق. فإلى جانب الهواجر والمراويس والطبول، أضاف مصغرات للآلات التراثية وقطعًا تذكارية تُباع كهدايا، ما أتاح له تنويع منتجاته والوصول إلى شرائح جديدة من العملاء. وكانت منتجات المنشأة تصل بالفعل إلى عملاء خارج السوق المحلية، إذ امتد حضورها إلى سبع دول، هي: السعودية والإمارات وعُمان والكويت والبحرين ومصر وماليزيا. ومع تطور المنشأة أنشأ صابر صفحات لها على فيسبوك وإنستغرام، وفتح قناة للبيع والتواصل عبر واتساب للأعمال، فأصبح الوصول إلى العملاء والتعريف بالمنتجات أكثر تنظيمًا، وارتفع عدد العملاء بنسبة ٥٠٪.

ومع اتساع النشاط تغيرت إدارة المنشأة أيضًا. فبعد أن كانت تفتقر إلى السجلات المالية والأرشفة المنتظمة للعمليات المالية والإدارية، أصبحت لديها سجلات مرتبة وأرشفة للعمليات، إلى جانب نظام مالي مؤتمت ساعد على تنظيم المعاملات ومتابعتها.



ولم يبق أثر هذا النمو داخل الورشة. فقد ارتفع عدد العاملين من عاملين إلى ستة، من بينهم امرأة، ما أتاح فرصًا جديدة للعمل والدخل في المجتمع المحلي. يقول صابر: «لم يقتصر هذا الأثر على زيادة قدرتنا الإنتاجية واختصار الوقت والجهد، بل مكّننا أيضًا من استيعاب عمالة محلية وتوفير فرص عمل لعدد من شباب المنطقة».

وفي الوقت نفسه تحسنت بيئة العمل من خلال توفير معدات الحماية الشخصية وطفاية حريق، إلى جانب التجهيزات الإدارية. وارتفعت قيمة أصول المنشأة من ٥٢٠ دولارًا أمريكيًا إلى ٦,٢٠ دولارًا، نتيجة الأصول التي وفرها المشروع والمساهمة الخاصة بالمنشأة.

لكن ما تغير لم يكن حجم الورشة أو أدواتها فقط. فما بدأ كحرفةٍ تمارس بإمكانات محدودة لتوفير قوت يومه أصبح مشروعًا يتعامل مع السوق، ويطور منتجاته، ويبحث عن طرق جديدة للوصول إلى العملاء. ومع هذا الوعي الريادي أصبح صابر يرى في المنتج قيمة اقتصادية إلى جانب قيمته الإبداعية والتراثية.

ولا تقتصر علاقة صابر بهذه الآلات على صناعتها؛ فهو يعمل أيضًا ضمن فرقتين فنيتين تقدمان عروضًا إيقاعية مرتبطة بالفنون والإرث الشعبي. وهكذا يجتمع صانع الآلة ومؤديها في شخص واحد، فتظل الآلات حاضرة في الفنون والأصوات التي تنتمي إليها، وفي المشهد الثقافي الذي نشأ فيه.

ومن هنا تتجاوز الحرفة حدود المنتج نفسه. فصناعة الهواجر والمراويس والمرافع تعتمد على معرفة متراكمة بالخشب والجلد وطرق التشكيل والتجهيز، واستمرار ممارستها يعني أن تظل هذه المعرفة حية وقابلة للتعلم والانتقال إلى جيل جديد. وبالنسبة إلى صابر لا يعني تطوير الحرفة تغييرها، وإنما منحها الأدوات التي تساعدها على الاستمرار والوصول إلى جمهور أوسع. ولهذا ينظر إلى منتجاته بوصفها وسيلة لحمل جزء من تريم إلى أماكن أبعد، ويقول: «أريد أن نقدم لجمهورنا ولعشاق التراث قطعة إيقاعية حضرمية مصنوعة بإتقان وتعيش عبر الأجيال».

اليوم يعمل صابر من مقر مستقل، بمعدات أكثر ملاءمة ومصدر طاقة يساعده على مواصلة الإنتاج. تنوعت منتجاته، واتسعت قنوات التسويق والبيع، وأصبح لديه فريق عمل أكبر، وتواصل منتجاته الوصول إلى أسواق داخل اليمن وخارجه. خلف هذا التحول قصة بدأت قبل سنوات طويلة، حين كان صابر طفلًا يراقب جده وهو يشكّل الخشب بيديه. اليوم يستخدم صابر ما تعلمه منه لبناء مشروع أكثر تنظيمًا، يرى فيه مصدرًا للرزق وفرصةً للحفاظ على حرفة ارتبطت بمكانه وذاكرته.

تأتي قصة صابر ضمن مشروع توظيف الشباب من خلال التراث والثقافة في اليمن، بدعم من الاتحاد الأوروبي، وتنفيذ وكالة تنمية المنشآت الصغيرة والأصغر (SMEPS) بالشراكة مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، في إطار دعم الشباب والصناعات الثقافية والإبداعية، وتحويل المهارات المرتبطة بالتراث إلى فرص للعمل والدخل.

وفي تجربة صابر لم يقتصر الدعم على توفير المعدات؛ بل منح حرفة موروثة مساحة أفضل للنمو، وساعد صاحبها على التعامل معها بوصفها مصدرًا للرزق، ومنتجًا له قيمة في السوق، وتراثًا يستحق أن يواصل حضوره. من تريم يستمر الإيقاع؛ حرفةٌ ورثها صابر عن جده، وطوّر أدواتها، وفتح لها أبوابًا أوسع نحو السوق، لتبقى قادرة على أن تُصنع، وتُباع، وتُسمع، وتصل إلى العالم.





www.smeps.org.ye